

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

المحاضرة ١٢: اللاهوت الطبيعي، الجزء ١

أ.ر. سي. سبرول

بَيْنَمَا نُنْتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِ عَنِ الْإِيمَانِ، تَذَكَّرُوا أَنَّنَا تَنَاوَلْنَا فِي الْمَحَاضِرَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ بَعْضَ الْمَبَادِيءِ الْإِبِسْتِيمُولُوجِيَّةِ، أَوْ مَبَادِيءِ الْمَعْرِفَةِ، اللَّازِمَةِ لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ الدِّفَاعِ عَنِ الْإِيمَانِ. فَتَنَاوَلْنَا قَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَقَانُونَ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمَوْثُوقِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْإِدْرَاكِ الْحُسِّيِّ، وَالِاسْتِخْدَامَ التَّشَابُهِيَّ لِللُّغَةِ. وَمِنْ هُنَاكَ، انْتَقَلْنَا إِلَى الْمَفَاهِيمِ الَّتِي يَتِمُّ الْخُلُطُ بَيْنَهَا عَادَةً فِي يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا سِيَّمَا فِكْرَةَ التَّنَاقُضِ، وَفِكْرَةَ الْمَفَارَقَةِ، وَفِكْرَةَ اللُّغْزِ.

ثُمَّ بَعْدَمَا بَلَّغْنَا نِهَايَةَ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ السَّلْسِلَةِ، أَوْدُ أَنْ أَوْجَّهَ انْتِبَاهَكُمْ الْيَوْمَ فِي اتِّجَاهٍ مُخْتَلِفٍ قَلِيلًا. وَسَتَنْطَرُقُ إِلَى فِكْرَةٍ مُهِمَّةٍ جَدًّا وَحَيَوِيَّةٍ فِي الدِّفَاعِ التَّارِيخِيِّ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَتُدْعَى بِمَبْدَأِ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ - الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ. أَقُولُ إِنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ حَيَوِيَّةٌ لِأَنَّهُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، تَعَرَّضْتُ فِكْرَةَ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، الَّتِي تَطَوَّرَتْ بِعِنَايَةِ عَبْرٍ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، لِهُجُومٍ عَنِيفٍ. فَالْكَثِيرُ مِنَ الْلَاهُوتِيِّينَ وَالدِّفَاعِيِّينَ فِي يَوْمِنَا هَذَا يَرْفُضُونَ فِكْرَةَ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ بِرُمَّتِهَا.

حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، فَإِنَّ الْإِسْمَ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِهِ عَلَى الْقَوْرِ عَادَةً مِنْ بَيْنِ الْلَاهُوتِيِّينَ هُوَ الْقِدِّيسُ ثُومَا الْأَكُوِيْنِي. وَبَعْضُ يُسَيِّئُونَ الْفَهْمَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ عِلْمَ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ هُوَ مِنْ اخْتِرَاعِ الْقِدِّيسِ ثُومَا. لَكِنْ فِعْلِيًّا، عِنْدَمَا قَدَّمَ الْقِدِّيسُ ثُومَا الْأَكُوِيْنِي الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ الْخَاصَّ بِهِ، كَانَ مُسْتَنِدًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ إِلَى الْقِدِّيسِ أَوْغُسْطِينُوسِ السَّابِقِ لَهُ. وَبِالطَّبِيعِ، عِنْدَمَا قَدَّمَ الْقِدِّيسُ أَوْغُسْطِينُوسُ مَفْهُومَهُ عَنِ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، كَانَ مَدِينًا لِتَعْلِيمِ الرَّسُولِ بُولْسِ نَفْسِهِ.

إِذْنًا، فِي تَنَاوُلِنَا لِهَذَا الْمَوْضُوعِ، دَعُونِي أَبَدًا بِتَقْدِيمِ تَعْرِيفٍ بَسِيطٍ لِمُصْطَلَحِ "الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ"، ثُمَّ تَنَاوُلْ مَعًا بَعْضَ الْمَبَادِيءِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي صَاحَبْتُهُ. يُشِيرُ مَفْهُومُ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ بِبَسَاطَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ - تَذَكَّرُوا أَنَّ عِلْمَ الْلَاهُوتِ مَعْنَاهُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ - مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ. فَإِلَى جَانِبِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ الَّتِي نَسْتَمِدُّهَا مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَبِانْفِصَالٍ عَنْهَا، يُوجَدُ مَصْدَرٌ آخَرٌ لِمَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَهُوَ الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا. قَبْلَ أَنْ أَتَابِعَ حَدِيثِي، يَجِبُ أَنْ أَقُولَ بِدَايَةٍ إِنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ وُجُهَاتٌ نَظَرٍ مُخْتَلِفَةً كَثِيرَةً مِنَ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، وَأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةً كَثِيرَةً مِنَ الْلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ. وَهَذَا يُفَسِّرُ جُزْئِيًّا الْجَدَلَ الْمُصَاحِبَ لِلْمُصْطَلَحِ.

لَكِنَّ تَارِيحِيًّا، وَبِحَسَبِ التَّقْلِيدِ الْمَسِيحِيِّ، يُعْتَبَرُ اللَّاهُوتُ الطَّبِيعِيُّ مَبْنِيًّا عَلَى أَمْرٍ آخَرَ، نُسَمِّيهِ "الإِعْلَانِ الْعَامِّ". وَفِي الْوَاقِعِ، يَخْطِطُ النَّاسُ أَحْيَانًا بَيْنَ هَدْيَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ. يُشِيرُ الإِعْلَانُ الْعَامُّ إِلَى فِعْلِ يَفْعَلُهُ اللَّهُ، بَيْنَمَا يُشِيرُ اللَّاهُوتُ الطَّبِيعِيُّ إِلَى فِعْلِ نَفَعَلَهُ نَحْنُ. فَاللَّاهُوتُ الطَّبِيعِيُّ هُوَ نِتَاجُ الإِعْلَانِ الْعَامِّ.

دَعَوْنِي أُرْسُ الْآنَ بِضَعِ لِحَظَاتٍ لِتَقْدِيمِ تَعْرِيفَاتٍ. حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الإِعْلَانِ الْعَامِّ، فَإِنَّ كَلِمَةَ "عَامٌّ" هِيَ تَقْيِصُ كَلِمَةِ "خَاصٌّ". وَلِهَذَا نُشِيرُ فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ إِلَى الإِعْلَانِ الْعَامِّ وَالإِعْلَانِ الْخَاصِّ. مُجَدِّدًا، إِذَا أَرَدْتُ التَّعَمُّقَ أَكْثَرَ، سَأَقُولُ إِنَّ الإِعْلَانِ الْعَامِّ يُدْعَى كَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ. السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَرَاءَ تَسْمِيَتِهِ بِالإِعْلَانِ الْعَامِّ هُوَ أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى إِعْلَانٍ مِنَ اللَّهِ مُقَدِّمٍ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، بِمَعْنَى أَنَّ مُسْتَقْبَلِي الإِعْلَانِ الْعَامِّ هُمْ الْجَمِيعُ. فَكُلُّ إِنْسَانٍ فِي الْعَالَمِ يَتَلَقَّى الإِعْلَانِ الْعَامِّ. لَمْ يَنْلِ كُلُّ شَخْصٍ فِي الْعَالَمِ امْتِيَّازَ الإِسْتِمَاعِ إِلَى الإِعْلَانِ الْخَاصِّ الْمَوْجُودِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. نَعْلَمُ أَنَّ نَمَّةَ قَبَائِلِ وَشُعُوبًا فِي هَذَا الْعَالَمِ لَمْ يَحْظُوا بِتَرْجَمَةٍ لِكَلِمَةِ وَاحِدَةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ إِلَى لُغَتِهِمْ، وَلَمْ يَسْمَعُوا آيَةَ كَلِمَةٍ مِنْ مَحْتَوَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَبِالنَّاتِلِي، فَإِنَّ أَدَاةَ الإِعْلَانِ الَّتِي نُسَمِّيهِ "الْخَاصُّ" - أَيِ كَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ - لَيْسَتْ مُتَاحَةً بَعْدَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ. أَمَّا الإِعْلَانُ الْعَامُّ، فَيَصِلُ إِلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ. السَّبَبُ الثَّانِي وَرَاءَ تَسْمِيَةِ الإِعْلَانِ الْعَامِّ بِهَذَا الإِسْمِ هُوَ مَحْتَوَاهُ. يَكْشِفُ الإِعْلَانُ الْعَامُّ مَعْرِفَةً عَامَّةً عَنِ اللَّهِ. فَإِنَّا لَسْنَا نَكْتَسِبُ فِي الإِعْلَانِ الْعَامِّ فَهْمًا وَاضِحًا لِلثَّلَاوِثِ، أَوْ لِحِطَّةِ اللَّهِ لِلْفِدَاءِ، بَلْ فَقَطْ بَعْضُ الْمَعْلُومَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ عَنِ طَبِيعَةِ اللَّهِ وَوُجُودِهِ الَّتِي تُعْلَنُ فِي الإِعْلَانِ الْعَامِّ.

بِمَا أَتْنَا نَحْبُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمُورِ، سَأَقْدِمُ لَكُمْ تَمْيِيزًا آخَرَ. مُجَدِّدًا، حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الإِعْلَانِ الْعَامِّ، نُشِيرُ إِلَى تَوْعِينِ مُخْتَلِفِينَ مِنَ الإِعْلَانِ الْعَامِّ. يُسَمَّى هَذَانِ التَّوَعَانِ بِالإِعْلَانِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ وَالإِعْلَانِ الْمُبَاشِرِ. إِذَنْ، نَسْتَطِيعُ التَّحَدَّثَ عَنِ إِعْلَانِ عَامٍّ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، أَوْ إِعْلَانِ عَامٍّ مُبَاشِرٍ. وَإِلَيْكُمْ الْفَرْقُ. الإِعْلَانُ الْعَامُّ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ هُوَ الإِعْلَانُ الَّتِي يُقَدِّمُهُ اللَّهُ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ مِنْ خِلَالِ وَسِيطٍ. فَهُوَ لَيْسَ مُبَاشِرًا، بَلْ غَيْرِ مُبَاشِرٍ. سَأُعْطِيكُمْ مِثَالًا لِذَلِكَ. حِينَ قَالَ الْمَرْمُورُ إِنَّ "السَّمَاوَاتِ مُحَدَّثٌ بِمَجْدِ اللَّهِ، وَالْفَلَكَ يُغَيَّرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ"، كَانَ يَقْصِدُ أَنَّهُ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَعِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الثُّجُومِ وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاوَاتِ - أَيِ حِينَ نَرَى تِلْكَ الْأَشْيَاءَ - نُنْذِرُ أَنَّ الثُّجُومَ وَالْقَمَرَ وَالشَّمْسَ وَغَيْرَ ذَلِكَ لَيْسَتْ هِيَ اللَّهُ، لَكِنَّهَا تُعْلَنُ قَدْرًا مِنْ مَجْدِ خَالِقِهَا، تَمَامًا مِثْلَمَا يَتْرُكُ رَسَامٌ عَظِيمٌ بَصْمَتَهُ عَلَى اللَّوْحَاتِ الَّتِي يَرْسُمُهَا. إِذَنْ، الْكُونُ نَفْسُهُ هُوَ وَسِيطٌ يُعْلَنُ شَيْئًا مَا عَنِ طَبِيعَةِ اللَّهِ. وَلِهَذَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِالإِعْلَانِ الْعَامِّ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ - أَيِ الإِعْلَانِ الَّتِي يُقَدِّمُهُ اللَّهُ عَنِ دَاتِهِ فِي الطَّبِيعَةِ وَمِنْ خِلَالِهَا.

أَمَّا الإِعْلَانُ الْمُبَاشِرُ - *immediate revelation* - فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَرِيعٌ أَوْ فُجَائِيٌّ، لَكِنَّهُ يَحْدُثُ دُونَ تَدَخُّلِ وَسِيطٍ. مِثْلًا، يُخْبِرُنَا الْأَصْحَاحُ الثَّانِي مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةَ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ نَامُوسَهُ عَلَى قُلُوبِنَا، وَبِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُولَدُ وَلَدَيْهِ صَمِيرٌ. يَغْرُسُ اللَّهُ وَعَيْنًا دَاخِلِيًّا بِهِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِي نَفْسِ كُلِّ مَخْلُوقٍ، بِحَيْثُ فَقَطْ بِحُكْمِ كَوْنِنَا بَشَرًا، يَكُونُ لَدَيْنَا وَعْيٌ

دَاخِلِيٍّ بِحَقِيقَةِ وُجُودِ اللَّهِ، يَغْرِسُهُ اللَّهُ فِي صَمِيرٍ أَوْ ذَهْنٍ كُلِّ مَخْلُوقٍ. فَهُوَ لَيْسَ اسْتِنْتَاجًا نَسْتَخْلِصُهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ، لَكِنَّهُ مَغْرُوسٌ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ دَاخِلِ النَّفْسِ. وَهَذَا مَا دَعَاهُ جُونُ كَالْفَنِّ "سِينْسُوسُ دِيفِينِيَتَاتِيَس" (*sensus divinitatis*)، أَوْ الْوَعْيُ بِاللَّهِ الْمَوْجُودِ دَاخِلَ كُلِّ مِنَّا. هَذَا مِثَالٌ لِلْإِعْلَانِ الْعَامِّ الْمُبَاشِرِ. نَرَى بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يُعْلِنُ عَنِ ذَاتِهِ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ بِطَرِيقَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، بِوَاسِطَةِ الطَّبِيعَةِ، وَبِشَكْلِ مُبَاشِرٍ عَبْرَ بَصْمَةِ الْوَعْيِ بِوُجُودِهِ دَاخِلِ النَّفْسِ.

حِينَ يَدُورُ نِقَاشٌ حَوْلَ الْإِعْلَانِ الْعَامِّ، وَلَا سِيَّمَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُطْرَحُ السُّؤَالُ التَّالِي: "مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَنِ ذَلِكَ؟" وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى فَنَاعَةٍ، مَثَلًا، بِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ صَادِقٌ. وَإِذَا كَانَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ يَقُولُ إِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، يُوجَدُ مَصْدَرٌ آخَرٌ لِلْإِعْلَانِ، فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَيَقْبَلُونَ هَذَيْنِ التَّوَعِينِ الْمُخْتَلِفَيْنِ مِنَ الْإِعْلَانِ. وَبِالطَّبَعِ، النَّصُّ الشَّهِيرُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي يُقَدِّمُ عَقِيدَةَ الْإِعْلَانِ الْعَامِّ، وَفِكْرَةَ اللَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، هُوَ الْأَصْحَاحُ الْأَوَّلُ مِنْ رِسَالَةِ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ.

فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، وَالآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ، كَتَبَ الرَّسُولُ مَا يَلِي: "لَأَنَّ غَضَبَ اللَّهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمْ". دَعُونِي أَنْتَوَقَّفَ هُنَا سَرِيعًا. فَهَذَا مُذْهِلٌ وَصَادِمٌ نَوْعًا مَا، لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَطْ بِيَضْعِ آيَاتٍ، قَدَّمَ بُولُسُ الْإِعْلَانَ الْمَجِيدَ عَنِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ. وَكَانَ الْعَرَضُ الْأَسَاسِيُّ مِنْ هَذِهِ الرَّسَالَةِ هُوَ أَنَّ يُعْلِنَ لِقَرَائِهِ مُحتَوَى الْإِنْجِيلِ، الَّذِي هُوَ الْخَبْرُ السَّارُّ. إِذْنًا، كُنَّا لِنَتَوَقَّعُ بَعْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْإِنْجِيلِ أَنْ يَنْتَقِلَ فِي الْحَالِ إِلَى شَرْحِ هَذَا الْإِنْجِيلِ. لَكِنَّ فِي الْمَقَابِلِ، رَجَعَ بُولُسُ إِلَى الْوَرَاءِ، وَتَحَدَّثَ عَنِ إِعْلَانِ مُخْتَلِفٍ، وَعَنْ غَضَبِ اللَّهِ الْمُعْلَنِ.

وَأَعْتَقِدُ أَنَّ سَبَبَ قِيَامِهِ بِذَلِكَ وَاضِحٌ، وَهُوَ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يُبَيِّنَ لِقَرَائِهِ لِمَاذَا كَانَ الْإِنْجِيلُ ضَرُورِيًّا مِنَ الْأَسَاسِ، وَلِمَاذَا كَانَ مَجِيءُ الْمَسِيحِ ضَرُورِيًّا لِخَلَاصِنَا. وَلِهَذَا رَجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ لِيُبَيِّنَ لِمَاذَا وَقَفَ جَمِيعُ الْبَشَرِ فِي الْعَالَمِ أَمَامَ مِئْصَةِ قَضَاءِ اللَّهِ، فَوُجِدُوا مُذْنِبِينَ. وَمَا اسْتَنْتَجَهُ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ الثَّالِثِ هُوَ أَنَّ الْجَمِيعَ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللَّهِ، وَالْجَمِيعَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْإِنْجِيلِ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا يَسُوعَ الَّذِي لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ قَطُّ، وَإِنَّمَا بِسَبَبِ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي لَدَيْهِمْ بِالْفِعْلِ عَنِ اللَّهِ.

لِنَنْظُرْ إِذْنًا إِلَى ذَلِكَ. قَالَ بُولُسُ: "لَأَنَّ غَضَبَ اللَّهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمْ". سَأَقُولُ سَرِيعًا وَبِشَكْلِ عَابِرٍ إِنَّهُ بِحَسَبِ التَّرْكِيبِ اللَّغَوِيِّ لِهَذَا النَّصِّ، يُشِيرُ اللَّفْظَانِ "فُجُورٌ" وَإِثْمٌ" إِلَى الْمَعْنَى ذَاتِهِ. فَثَمَّةُ خَطِيئَةٍ وَاحِدَةٌ مَقْصُودَةٌ هُنَا، يُمَكِّنُ اعْتِبَارُهَا فُجُورًا وَإِثْمًا عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. تَابَعَ بُولُسُ مُوضِحًا مَا هِيَ هَذِهِ الْخَطِيئَةُ: "الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالْإِثْمِ". مُجَدِّدًا، دَعُونِي أَنْتَوَقَّفَ هُنَا وَأَقُولُ إِنَّ الْخَطِيئَةَ الْعَامَّةَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلْبَشَرِيَّةِ السَّاقِطَةِ هِيَ حَاجِزُ الْحَقِّ، لَيْسَ فَقَطْ الْحَقُّ بِوَجْهِ عَامٍّ، بَلْ ثَمَّةُ حَقٌّ مُحَدَّدٌ تَعَرَّضَ لِلْحَاجِزِ. لِتَرِ مَا هُوَ: "إِذْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ". أَتَلَا حُطُونَ مَا يَقُولُهُ بُولُسُ هُنَا؟ يَقُولُ بُولُسُ إِنَّ اللَّهَ يُعْلِنُ غَضَبَهُ عَلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، لِأَنَّ الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ مُذْنِبٌ

بِحَرِيمَةِ حَجَزِ الْحَقِّ عَنِ اللَّهِ، الَّذِي قَالَ فِي الْبِدَايَةِ إِنَّهُ يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ. إِذَنْ، حَتَّى الْآنَ، تَحَدَّثَ بُولُسُ عَن حَجَزِ لِمَعْرِفَةِ مُمَكِّنَةِ بِاللَّهِ. وَلِمَاذَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ. لِأَنَّ اللَّهَ، كَمَا قَالَ بُولُسُ، أَظْهَرَهَا لَهُمْ. ثُمَّ يَزِدَادُ الْأَمْرَ سُوءًا. فَقَدْ تَابَعَ قَائِلًا: "لِأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلَاهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلَا عُدْرٍ".

فَمُنْذُ الْخَلْقِ، أَعْلَنَ اللَّهُ بِوُضُوحٍ (كَلِمَةُ "تُرَى" هُنَا جَاءَتْ مِنْ كَلِمَةِ "فَانِيرُوس" (phaneros)، وَمَعْنَاهَا "وَاضِحٌ" وَ"ظَاهِرٌ" وَ"جَلِيٌّ"). فَلَا يُخْفِي اللَّهُ بَعْضَ مَفَاتِيحِ حَلِّ اللَّغْزِ وَرَاءَ الشُّجَيْرَاتِ، وَفَقَطِ الْبَاحِثِ الْيَقِظِ وَالْفَطِنِ هُوَ مَنْ رُبَّمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُصَّهَا إِنْ كَانَ مَاهِرًا كِفَايَةً، مُسْتَنْتِجًا أَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ. كَلَّا، فَإِلْغْلَانُ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ لِدَرَجَةٍ أَنَّ الْجَمِيعَ يَرُونَهُ. وَهُوَ مُدْرِكٌ بِوُضُوحٍ بِالْمَصْنُوعَاتِ فِي الْخَلِيقَةِ وَمِنْ خِلَالِهَا. فَإِنَّا نَرَاهُ جَمِيعًا، وَهَذَا يَجْعَلُنَا بِلَا عُدْرٍ. مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْعُدْرَ الَّذِي يَقْصِدُهُ الرَّسُولُ هُنَا، وَالَّذِي أَدْرَكَ أَنَّ الْبَشَرَ سَيَحَاوِلُونَ التَّدْرُعَ بِهِ فِي يَوْمِ الدَّيْنُونَةِ حِينَ يَمْتَلُونَ أَمَامَ اللَّهِ، هُوَ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ: "يَا رَبِّ، فَقَطْ لَوْ كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّكَ مُوجُودٌ، كُنْتُ لِأَحْيَا حَيَاةً مُخْتَلِفَةً، وَأَصْبَحَ تَلْمِيزًا مُخْلِصًا لَكَ، وَأَطِيعَكَ وَأَعْبُدَكَ وَأَخَافُكَ". بَلْ يَقُولُ اللَّهُ: "كَلَّا، كَلَّا، كَلَّا. هَذَا الْعُدْرُ لَنْ يُجِدِي أَيَّ نَفْعٍ، لِأَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ بِالْفِعْلِ أَنِّي مُوجُودٌ، وَعَلِمْتُمْ قُدْرَتِي السَّرْمَدِيَّةَ، وَلَاهُوتِي، لِأَنِّي أَظْهَرْتُهَا لَكُمْ، وَبِوُضُوحٍ. فَإِنَّكُمْ لَمْ تَتَّبِعُونِي لَيْسَ بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ، أَوْ عَدَمِ مَعْرِفَتِكُمْ بِي، بَلْ بِسَبَبِ بُغْضَتِكُمْ لِي، وَرَفْضِكُمْ الْإِنْتِبَاهَ إِلَيَّ". هَذَا هُوَ الْإِتْهَامُ الَّذِي يُوجِبُهُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ لِلْعَالَمِ أَجْمَعٍ. ثُمَّ تَابَعَ يَقُولُ: "لِأَنَّكُمْ لَمَّا عَرَفْتُمُ اللَّهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَالِهٍ، بَلْ حَمَقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ".

سَأَمُحُوا مَا دَوَّنَتْهُ عَلَى السُّبُورَةِ، وَأَرْسُمُ لَكُمْ صُورَةً أُخْرَى، إِذَا اسْتَطَعْتُ. لَدَيْنَا أَوْلَا مَا يُعْرَفُ بِإِغْلَانِ اللَّهِ. سَأَرْسُمُ خُطُوطًا تَنْبِئُ مِنَ الشَّمْسِ كَرَمَزٍ لِلنُّورِ الَّذِي يَسْطَعُ مِنْهَا. وَهَذَا الثُّورُ سَيَمْتَلُ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ. فَهُوَ يُعْلِنُ. وَهَذَا نَحْنُ ذَا فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ، تَحْتَ هَذِهِ الْأَشْعَةِ، وَسَنُسَمِّي ذَلِكَ الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ. يَنْظُرُ الْبَعْضُ إِلَى الْأَمْرِ هَكَذَا، قَائِلِينَ: "هَذِهِ هِيَ خَطِيئَةُ الْبَشَرِ: أَنَّ اللَّهَ يُعْلِنُ عَن ذَاتِهِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَظَاهِرٍ، لَكِنْ ثَمَّةَ حَاجِزٍ بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، وَهَذَا الْحَاجِزُ هُوَ خَطِيئَةُ الْبَشَرِ وَفَسَادُهُمْ. وَنَتِيجَةُ لِتِلْكَ الْخَطِيئَةِ وَهَذَا الْفَسَادِ، يَرْتَبِطُ الْإِغْلَانُ بِالْحَاجِزِ، فَيَرْتَدُّ عَنْهُ، وَلَا يَخْتَرِقُ النَّبْتَةَ ذَهْنَ الْمَخْلُوقَاتِ. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ ثَمَّةَ إِغْلَانًا مَوْضُوعِيًّا فَوْقَ الْخَطِّ، لَكِنَّهُ لَا يَصِلُ النَّبْتَةَ إِلَى الْمُسْتَهْدَفِينَ". لَيْسَ هَذَا مَا قَصَدَهُ الرَّسُولُ هُنَا. لَمْ يَقْصِدِ الرَّسُولُ أَنَّ دَيْنُونَةَ اللَّهِ مُعْلِنَةٌ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَنَ عَن ذَاتِهِ، لَكِنَّ الْبَشَرَ رَفَضُوا السَّمَاخَ لِذَلِكَ الْإِغْلَانِ بِاخْتِرَاقِ عَقُولِهِمْ. لَيْسَ هَذَا هُوَ أَسَاسُ الْإِتْهَامِ، لِأَنَّهُ تَابَعَ يَقُولُ: "لِأَنَّكُمْ لَمَّا عَرَفْتُمُ اللَّهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَالِهٍ".

إِذْنًا، مَا يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ مِنْ رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ هُوَ أَنَّ هَذَا الْإِعْلَانَ الْآتِيَّ مِنَ اللَّهِ يَعْبُرُ الْحَاجِزَ، وَيَخْتَرِقُ ذَهْنَ الْإِنْسَانِ، لَكِنَّا نُحَرِّفُهُ دَائِمًا، وَنَسْتَبْدِلُ الْحَقَّ بِالْكَذِبِ، فَتَصِيرُ عَبْدَةٌ أَوْثَانٍ، إِلَى آخِرِهِ. فَإِنَّا نُحْجِرُهُ وَنُخْفِيهِ وَنَسْتَبْدِلُهُ بِالْكَذِبِ، لَكِنَ فَقَطْ بَعْدَ وُصُولِ الْمَعْرِفَةِ إِلَيْنَا. إِذْنًا، الْفِكْرَةُ الَّتِي حَاوَلَ الرَّسُولُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا هِيَ أَنَّهُ لَيْسَ فَقَطْ ثَمَّةَ إِعْلَانٍ إِلَهِيٍّ فِي الطَّبِيعَةِ - أَيَّ إِعْلَانٍ طَبِيعِيٍّ - بَلْ هَذَا الْإِعْلَانُ الطَّبِيعِيُّ يُوَدِّي إِلَى مَاذَا؟ إِلَى لَاهُوتٍ طَبِيعِيٍّ. وَاللَّاهُوتُ الطَّبِيعِيُّ هُوَ أَسَاسُ الْجُزْمِ الْعَامِّ لِلْإِنْسَانِ.

مِنْ أَكْثَرِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي أَسْمَعُهَا هُوَ: "مَاذَا سَيَحِلُّ بِالسُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ الْأَبْرِيَاءِ فِي أُفْرِيقِيَا الَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا قَطُّ بِرِسَالَةِ الْإِنْجِيلِ؟" فَيَأْتِي جَوَابِي صَارِمًا تَوَعَّا مًا، وَدَائِمًا مَا يَكُونُ صَادِمًا، فَأُجِيبُ: "لَا شَيْءَ سَيَحِلُّ بِالسُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ الْأَبْرِيَاءِ فِي أُفْرِيقِيَا الَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا قَطُّ بِرِسَالَةِ الْإِنْجِيلِ. فَالسُّكَّانِ الْأَصْلِيُّونَ الْأَبْرِيَاءِ فِي أُفْرِيقِيَا لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَى سَمَاعِ الْإِنْجِيلِ. لَكِنَّ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ الْأَبْرِيَاءِ فِي أُفْرِيقِيَا سَيَذْهَبُونَ إِلَى السَّمَاءِ مُبَاشَرَةً عِنْدَ مَوْتِهِمْ، دُونَ الْمُرُورِ بِضَابِطِ الْجَوَّازَاتِ، وَدُونَ تَأْشِيرَةِ دُخُولِ. فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ مَا يَقْلُقُونَ حَيَالَهُ، وَمَا كُنْتُ لِأَنْفِقَ جُنَيْهَا وَاحِدًا عَلَى إِرْسَالِيَّةِ كِرَارَةٍ لِلْسُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ الْأَبْرِيَاءِ فِي أُفْرِيقِيَا أَوْ أَسْتْرَالِيَا أَوْ نِيوزِيلَانْدَا أَوْ أَمْرِيكَا الْجَنُوبِيَّةِ أَوْ أَيِّ مَوْضِعٍ آخَرَ". فَالْأَبْرِيَاءُ، يَا أَحِبَّائِي، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِنْجِيلِ.

السُّؤَالُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ: "كَمْ عَدَدُ الْأَبْرِيَاءِ بَيْنَ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ فِي أُفْرِيقِيَا أَوْ أَمْرِيكَا الْجَنُوبِيَّةِ أَوْ أَسْتْرَالِيَا؟" إِذَا أَجَدْنَا فَهَمَّ كَلَامٍ بُولَسَ هُنَا، سَنَجِدُهُ يَقُولُ إِنَّهُ مَا مِنْ أَبْرِيَاءِ، وَإِنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ فِي أُفْرِيقِيَا وَأَسْتْرَالِيَا وَالْعَالَمِ أَجْمَعٍ تَلَقَّوْا هَذَا الْإِعْلَانَ الْوَاضِحَ عَنِ اللَّهِ الْآبِ، وَجَمِيعُهُمْ حَجَرُوا تِلْكَ الْمَعْرِفَةَ، وَاسْتَبَدَّلُوهَا بِالْكَذِبِ، وَاخْتَارُوا عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِ دُونَ الْإِلَهِ الْحَقِيقِيِّ الْوَحِيدِ. وَإِلَى هَذَا الْعَالَمِ الرَّازِحِ بِالْفِعْلِ تَحْتَ الدِّيُونَةِ أَرْسَلَ اللَّهُ الْمَسِيحَ مُحَلِّصًا. لَكِنَّ الْمَسِيحَ جَاءَ إِلَى عَالَمٍ وَقَعَ بِالْفِعْلِ تَحْتَ دِيُونَةِ الْآبِ، بِسَبَبِ الْإِعْلَانِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي قَدَّمَهُ عَنِ ذَاتِهِ بِوُضُوحٍ وَجَلَاءٍ شَدِيدَيْنِ، وَالَّذِي اخْتَرَقَ الْأَذْهَانَ. إِذْنًا، مَا نَقْصِدُهُ بِاللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ بِمَعْنَاهُ الْأَبْسَطِ هُوَ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ عَنِ اللَّهِ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ كَنْتِيَجَةً مُبَاشَرَةً لِلْإِعْلَانِ الْعَامِّ. فَهِيَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ الَّتِي نَسْتَمِدُّهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ.

وَمُجَدِّدًا، حِينَ تَحَدَّثُ أَوْغُسْطِينُوسُ عَنِ اللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، اسْتَنَّدَ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ إِلَى رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ. وَحِينَ أَنْشَأَ الْأَكُوْبِيْنِي بَعْدَ ذَلِكَ بِقُرُونٍ نِظَامَ اللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ الْخَاصَّ بِهِ، اسْتَنَّدَ لَيْسَ فَقَطْ إِلَى رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، بَلْ أَيْضًا إِلَى كِتَابَاتِ أَوْغُسْطِينُوسِ، وَافْتَبَسَ مِنْ أَوْغُسْطِينُوسِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَقَاطِعِ، قَائِلًا: "أَجَلْ، بِسَبَبِ رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، وَبِسَبَبِ الْإِعْلَانِ الْعَامِّ، صَارَتْ هُنَاكَ مَعْرِفَةٌ عَامَّةٌ بِاللَّهِ". يَظُنُّ كَثِيرُونَ أَنَّ مَا قَصَدَهُ الْقَدِيدُسُ تُوْمَا بِذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ، بِمَنْطِقِهِ الْمَجْرَدِ، وَدُونَ آيَةٍ مُسَاعِدَةٍ مِنَ الْإِعْلَانِ الْإِلَهِيِّ، لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَى أَنْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ بِاللَّهِ. لَيْسَ هَذَا مَا عَلَّمَ بِهِ تُوْمَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَوْ مَا عَلَّمَ بِهِ أَوْغُسْطِينُوسُ. فَكِلَاهُمَا قَالَ:

"إِنَّا نَحْضُلُ عَلَى اللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ بِوَاسِطَةِ الإِعْلَانِ الإِلَهِيِّ - أَيِ الإِعْلَانِ الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ عَنْ ذَاتِهِ فِي الطَّبِيعَةِ".
أَسْفَرَتْ هَذِهِ الفِكرَةُ عَنْ نَتَائِجِ صُخْمَةٍ تَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الدَّفَاعِيَّاتِ. وَهَذَا مَا أَرْجُو أَنْ نَدْرُسَهُ فِي المَحَاضِرَاتِ المُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سِنُورُول هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِير، وَكَانَ أَحَدَ رُعاةِ كَنِيسَةِ القُدَيْسِ أَنْدُرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْد بِوِلايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ لِلإِصْلاَحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لاهوتيين" و"أدهشني الألم".